من آيات الله

فى الرزق

قال تعالى فى سورة الروم: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٧, ٣٨].

يذكر العلماء أن الرؤية هنا فى قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ رؤية بصرية وعلمية معاً، أى أنها رؤية بالنظر فى وجوه الحياة، وفى أحوال الناس.

ومن هذه الرؤية يجئ العلم الذى يرى منه المبصرون: أن الله سبحانه لم يجعل الناس على سواء، فيما قدر لهم من أرزاق فى هذه الدنيا، كما يقول سبحانه فى سورة الزخرف: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢].

فهذا العلم الذى يجئ به للنظر فى أحوال الناس، وفى اختلاف أرزاقهم، يدل على أن ذلك لم يكن إلا بإرادة عليا، وعن تقدير لمالك الملك، المتصرف فى العباد.

فيبسط الله الرزق ويوسعه لبعض الناس، ويضيقه ويقدره لآخرين، بحكمة وتقدير.. فالأرزاق بيد الله، يعطى منها ما يشاء لمن يشاء.. ذلك ما يعرفه المؤمنون بالله، ويرضون بما قسم الله لهم، فلا يبطر المؤمن إذا أصابته نعمة، ولا ييأس أو يحزن إذا قدر الله رزقه. ﴿إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ أما غير المؤمنين فإنهم لا يرون لله فى ذلك شيئاً، وإنما هى الدنيا، يقتتل فيها الناس، ويتخاطفون ما عليها، كما تتخاطف الذئاب فريسة وقعت لها، فمن وقع ليده أو فمه ما يشبعه رضى واطمأن، ومن لم يقع ليده أو فمه شئ، اغتم، وحزن، ومات أسى وحسرة.

وهذه الآية ﴿أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ هى أشبه بتعقيب على الآية التى قبلها. وهى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦].

ذلك أنه لو نظر الإنسان إلى أحوال الدنيا وتقلبات الأيام، وتبدل الأحوال بالناس، ثم كان له من هذا النظر عبرة وموعظة، لكان له من ذلك موقف رشيد حكيم مع ما يبتلى الله سبحانه العباد، من نعم، ونقم.

فإذا ساق الله تعالى إليه مزيداً من النعم، لم يستبد به الفرح، ولم يأخذه الغرور، لأنه يعلم أن ذلك إلى تبديل، وتحويل، وزوال. وأنه إذا مسه سوء، وأصابه ضُر، لم يقتلعه الجزع، ولم يخنقه اليأس والقنوط، لأنه يعلم بإيمانه بالله أن تلك الحال لن تدوم، وأن مع العسر يسراً، وأن بعد الضيق فرجاً وسعة، كما يقول سبحانه: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧] وكما يقول جل شأنه: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦].

فالرزق فى سعته وضيقه تابع لمشيئة الله، فعلى الإنسان أن يعلم أن الرحمة التى ذاقها، والسيئة التى أصابته، ممكنة الزوال، بمشيئة الله سبحانه، ولا موجب للفرح بما لا يُؤمنُ من فقده، ولا للقنوط مما يُرجى زواله.

وما دام المال مال الله، فهو عارية فى يد البشر الذين استخلفهم عليه ليس لهم أن يتأخروا عن إنفاذ أمر الله فى هذا المال، فإذا أمرهم أن يؤتوا فئات من الناس شيئاً من المال، فعليهم أن يبادروا بذلك، فما يؤتونهم إلا من مال الله.

وللبشر حق الانتفاع بما فى أيديهم من مال الله، وهو الحق الوحيد الذى لهم فى هذا المال، والانتفاع بالمال قد يكون باستغلاله أو استثماره، كما هو الحال فى الطعام والشراب واللباس، وقد يكون بالتصرف فى المال تصرفاً شرعياً كالبيع والهبة والصدقة.

وللبشر أن ينتفعوا بمال الله فى هذه الوجوه كلها، وحق البشر فى الانتفاع بمال الله ليس حقاً مطلقاً وإنما هو حق مقيد بقيود.

فليس لهم أن ينتفعوا بهذا المال كما يشاءون، وإنما لهم أن ينتفعوا به فقط فى حدود المباح وحسب حاجتهم لهذا المال، وبالقدر الذى يكف عنهم الحاجة، ويدفعها، بشرط أن يكون ذلك كله مع الاعتدال دون سرف أو تقتير.

فليس لهم أن يسرفوا فى طعامهم وشرابهم ولباسهم وأمور معيشتهم، ولا يجوز لهم أن يقتروا على أنفسهم. قال تعالى: ﴿ **كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ** ﴾ [طه: ٨١].

وعن خولة الأنصارية قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن رجالاً يتخوضون فى مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة».

ولا يخفى أن الإنسان إذا علم علماً يقينياً، أن الله هو الذى بيده كل شئ وأنه هو سبحانه الذى يجرى أرزاق العباد كما شاء وقدر.. إذا علم الإنسان هذا العلم، سخت نفسه بالعطاء والبذل، وسمحت يده بالإحسان ببعض ما أتاه الله، وخاصة ما كان متعلقاً بذوى القربى، واليتامى، والمساكين، فهؤلاء لهم حقوق فى أموال ذوى المال، وقد أوجبها الله لهم فى تلك الأموال قال تعالى: ﴿ **فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ** ﴾ [الروم: ٣٨].

وشتان بين إنسان يعلم أن هذا المال الذى فى يده ليس له فيه شئ، وأن سعيه وكده لم يُحَصِّل ما قدره الله، وبين من يرى أن هذا المال الذى جمعه هو ثمره عمله وكده.

فالإنسان الأول: لا يضن بالمال على الحقوق الواجبة لله فيما أعطاه الله لأنه ﴿ **وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ** ﴾ [الحديد: ٧].

وأما الإنسان الثانى الذى يرى أن المال الذى معه هو من جمعه وكده، فإنه يتصرف فى هذا المال تصرف المستبد بما يملك ملكاً خاصاً، لا يرى لأحد شيئاً معه، كذلك فعل قارون، وكان جوابه على من دعاه أن يبتغى بما أتاه الله الدار الآخرة أن قال ﴿ **قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي** ﴾ [القصص: ٧٨]

لا شك أن المؤمن الذى ينفق المال فى سبيل الخير، ينال خيراً كثيراً، لأن الله سبحانه وتعالى قال ﴿ **فآت ذى القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون** ﴾.

فالوسيلة المضمونة لمضاعفة الخير والثواب إنما هى إرادة وجه الله، أليس هو الذى يبسط الرزق ويقدر ؟ أليس هو الذى يعطى الناس ويمنع ؟ فهو الذى يضاعف إذن للمنفقين ابتغاء وجه الله.

* * *

obeikandl.com